مشاكل الأطفال

بقلم السيدة زاهية مرزوق

اليك أيتها الأم إن كنت تهتمين بتربية أطفالك . . اليك أيها الوالد إن كنت تحرص على مصلحة أولادك . . اليك أيتها الفتاة إن كنت تعدين نفسك لرسالة الأمومة، اليكم جميعا أوجه حديثى هذا .

الطفل الصحيح البنية ، النشيط ، المجتهد ، المطيع ، المرتب ، السعيد فى حياته ، هو أمنية كل والد ووالدة . والمنازل مملوءة بالأطفال ، ولكن من أى نوع ؟ . هل من النوع الذى يعد حقيقة زينة الحياة الدنيا؟ . . وهل سألت نفسك أيتها الأم إن كان طفلك مجتهدا أو كسولا ، عنيدا أو مطيعا ، هادئا أو غضوبا ، شرسا أو خنوعا، نابغا أو متأخرا ، صحيحا فى جسمه وعقله أم عليلا ؟ . . وهل أنت مخورة بطفلك بين جيرانك ؟ وهل يصح أن يقتدى به الأطفال ؟ . . وهل تعرفين حقيقة مركزك فى تربية طفلك ، وهل أخفقت أو نجحت فى تهذيبه ، وهل تعرفين كيف تقومين ما أعوج من أخلاقه أم قد تطرق اليأس إلى قلبك وأسلمت طفلك للقدر وتمثلت بالقول السائر " الولد المربى من عند ربى" ؟ !

لقد تقدم العلم الحديث . ولم يترك لنا مجالا للحدس أو التخمين، بل لجأ فى حل مشكلات الحياة إلى الطرق العلمية الصحيحة والمنطق السليم .. وقد تعلمنا الآن أن نلجأ فى حل مشاكل الأطفال — وهى أعقد مشاكل الحياة — إلى فهمهم وبحث ما يحيط بهم لا إلى ضربهم وإرهابهم.

من المعلوم أن الضرب فى المنازل المصرية هو الوسيلة الوحيدة لتربية الأطفال ، وواجبنا نحن المربين أن نرشد الوالدين إلى ما يصلح لتربية الأطفال، ونحذرهم مما يؤدى بهم إلى الضرر البليغ . وأول شىء نحذركم من عواقبه أيها الوالدون هو الضرب والإرهاب . فالضرب لا يصلح الطفل ، بل يفسده ويزيد مشكلته تعقيدا . . الضرب له أسوأ الأثر فى نفسية الطفل . فان لم يرب فيه العناد والحنق على المجتمع فانه يربى فيه الخوف والجبن والكذب وربما أدى به إلى التشرد والإجرام . الضرب يقتل فى الطفل الضمير الحى . يقتل فيه الشجاعة ويعلمه الخنوع والخضوع . وكثرة الضرب تعود الطفل عدم المبالاة به . فبعد قليل يستسهله فى سبيل إرضاء شهواته ورغائبه " وعلقة وتفوت ولا حد يموت" وفى ذلك ما فيه من خطر على شخصيته وحساسيته وكرامته وعزة نفسه . والأم المحبة لنفسها هى التى تلجأ للضرب . فهو أسهل دواء مسكن للطفل الباكى . فهى لا هم لها إلا إبطال "دوشة الدماغ"

بأى شكل كان . . ولكن هل فكرت فى الحقد الذى تتركه فى نفسه إن كانت ظالمة له . وفى كرهه لها إن كانت أساءت إلى حنانها عليه ، وهل فكرت أولا لماذا يبكى وهل كلفت نفسها إزالة أسباب بكاه ؟ . الأم العاقلة هى التى تلجأ فى إصلاح طفلها إلى طرق التربية الحديثة . فهى تريها كيف تغرس فيه العادات الحسنة وكيف تداوى العادات الأولية السيئة كالتبول على النفس ، وعدم الانتظام فى النوم ، ورفض الطعام ، وكيف تمنعه من تكوين العادات الخلقية السيئة كالغضب والغيرة ، والكذب والسرقة ، والتشرد وحب التخريب ، إلى غير ذلك من العادات التى يتعرض لها كثير من الأطفال .

تؤثر فى تربية الطفل عوامل عدّة : أهمها البيئة التى ينشأ فيها . فالبيئة هى مرآة تعكس كل شىء على الطفل ، فهو بمثابة عدسة حساسة تنعكس عليها جميع المؤثرات . فأعمالك وحركاتك ومعاملتك لمن حولك وكل شىء فى بيئة الطفل ينطبع فى مخيلته الصغيرة ويترك أثرا عميقا فى طباعه ونفسيته .

وعلاقة الطفل العاطفية بالوالدين هى من أهم العوامل التى تؤثر فى تربيته وشخصيته . يعتقد الكثيرون أن الطفل المولود لا حاجة له إلا الى الغذاء الذى عليه يعيش . وبه ينمو جسمه . وتقوى عضلاته . يفكر الناس دائما فى الناحية الجسمية وينسون الناحية النفسية التى عليها يتوقف نجاح الانسان فى الحياة . الطفل الوليد جائع مهما أعطى من طعام . فنفسيته جائعة ولا يشبعها إلا العاطفة والصداقة والحنان . كيف لا وهو الذى يطالب بحب أمه له ومحافظتها عليه من يوم ولادته ، وما صرخته الأولى ساعة خروجه إلى هذه الحياه إلا نداءات توقد لهيب العاطفة فى صدر أمه كما يجرى دمها لإحيائه . كيف لا وهو الذى يتطلب هذه العاطفة بكل قوة وحرارة كما يتطلب جسمه الهواء والغذاء . العاطفة غذاء النفس ، والطفل الذى يعيش محروما منها لا يجد له ملجأ لتصريف أفكاره ولا يجد لشخصيته مكانا فسيحا فى عالم وجوده .

ويتأثر الطفل تأثيرا مباشرا بالعلاقات الحبية والمعنوية بين الوالدين ، فاذا ما اختل التوازن العائلى بينهما وقعت الكارثة على الطفل الضحية ، وأصبح مشكلة من أعقد مشاكل الطفولة ، وكم من أطفال شردوا وأجرموا نتيجة ذلك الخلاف العائلى .

فالأمن والحماية والسلام هى من حقوق الطفولة المقدسة التى يجب أن تضمنها للطفل فى جميع أدوار حياته الأولى . وطبعا لا يمكن أن تضمنها له فى حياة عائلية مشوّهة متنازعة .

والاستقلال الفردى رغبة تسيطر على الطفل من بدء حياته فيجب أن نهيئ بيئته بشكل لا يعوق هذه الرغبة الطبيعية ، ويجب أن نعطيه الفرصة ليهيئ نفسه تهيئة استقلالية . فلا نشعره بالافراط فى الحماية والاتكال على من حوله .

الطفل محتاج إلى والدين يفهمانه فهما دقيقا . ويمهدان لكل خطوة من خطوات نموه بما يتفق وأصول التربية الصحيحة ، ويعطيانه من الفرص والحرية والتشجيع والإرشاد ما يفتح أمامه الحياة بما فيها من أمل وكفاح ، ويضربان له الأمثال من نفسيهما بما يقربه من المثل العليا ويعده أحسن اعداد لتأديه رسالة الحياة . الطفل أمانة فى عنق الوالدين وعليهما أن يؤدياها إلى المجتمع كاملة ناضجة صالحة لخدمته . وكل نقص فى هذه الأمانة يعود باللائمة عليهما . يجب أن يؤديا ما للطفل من واجبات واحتياجات وخصوصا النفسية منها . يجب ألا يضن الوالد على طفله بقليل من وقته فيتخذ منه صديقا يجلس اليه ويلعب معه ويفسر له ما غمض عليه من أمور الحياة . يجب أن يجيبه بطريقة يفهمها عن كل سؤال يوجهه اليه . فذلك خير له من التقاط المعلومات الخاطئة من جهات أخرى . يجب أن يشعر الطفل بصداقته له ونزوله لمستواه العقلى ، ففى ذلك فائدة كبيرة للطفل وللوالد وللعلاقة التى بينهما .

والقيادة الحسنة للطفل من أحق الواجبات على الوالدين . ويجب أن تكون سليمة منزهة عن كل هوى متمشية مع رغبات الطفل الطبيعية . فكثيرا ما نجد الأطفال يذهبون ضحية آبائهم وأمهاتهم . فالأم الحديثة العهد بالأمومة تنسى نفسها وتنسى حقوق طفلها عليها ، وتنغمس فى تيار " تدليعه " وتدليله فيصبح بعد قليل دكتاتور المنزل ، إذا أمر أجيب . وإذا بكى قامت الدنيا وقعدت وجرى الجميع ليروا ماذا يريد . وإذا أراد المعطى بغير نظر إلى نتائج الإعطاء . وفى هذه الحالة ينقلب الطفل من مطيع إلى مطاع . ويفلت من أمه زمام قياده ويصبح قائدا لا مقودا .

والأب الناشئ فى مهنة الأبوة ينسيه حبه الأعمى لطفله واجبات القيادة والإرشاد فهو فرح به يضحك ملء شدقيه إذا ما شتم أو ضرب فلانا ، ويفخر به أمام الأهل والاصدقاء ، فقد كبر الغلام ؟ ... وأقل صدمة يلقاها هذا الطفل " الدلوعة " " وحيد أمه " هى مجىء طفل آخر فى العائلة . فهنا ينقلب كل شىء فى بيئة الطفل " القديم " ويتحول كل الاهتمام للطفل الجديد " والغربال الجديد له تعليقة " وهنا يتمرد الطفل الأول ويحتج بكل ما أوتى من قوة على هذه المعاملة الشاذة . ويبدأ فى الحكم على من حوله بالتذبذب وعدم العدل فى المعاملة ويدب فيه الحقد والبغضاء لأخيه الصغير ... ويظهر أثر ذلك فيما يأتى من أعمال الغضب والثورة . فلا ترضى بذلك الأم . وتبدأ فى إملاء إرادتها عليه . وتظهر بمظهر الحاكم المسيطر . الذى يجب أن يأمر فيطاع . والطفل بدوره لم يتعود هذه الطاعة العمياء ، ويعجب فى عقله الصغير : لماذا كل هذا التغيير . . ويظل الطفل فى عراك مع نفسه ونضال مع أمه وبيئته حتى يتغلب اليأس عليه ويقوده إلى طريق غير قويم . وهكذا ينقلب الإفراط فى الحب إلى ضرر بالطفل . فالأم العاقلة هى التى تحكم عقلها قبل عاطفتها فلا تعمى عن مصالح الطفل لهذا الحب والحنان الكاذب . هذا الحنان الذى يجعل من الطفل شابا جبانا لا يقوى على شق طريقه فى الحياة . الأم الصادقة هى التى تغرس فى طفلها روح الاستقلال . والاعتماد على

النفس . ومقابلة مشاكل الحياة بقوة وعزيمة وإقدام. الأم المخلصة هى التى لا تتعلق بطفلها لدرجة الجنون . فهى فى الحقيقة تضره وتضر مستقبله وتجعله يحجم عن كل عمل يبعده عنها ولو إلى حين. فتعلقها به يقنعه بالقليل فى أحضانها عن الكثير فى بقاع الرزق، يرضيه بالخمول بجانبها عن المجد والشرف بعيدا عنها . أعرف أسرة قريبة كان لها طفل عزيز أتم دراسته الابتدائية فى بلدته من عشر سنين . وعند ما أتى موعد الدراسة الثانوية عارضت الأم فى إبعاده عنها، وساعدها الحظ بأن مرضت فعزت مرضها إلى تفكيرابنها فى البعد عنها، فظل بجانبها واضطر للدرس بمنزله حتى حصل على شهادة البكالوريا . وإذ ذاك أراد السعى فى طلب الرزق فوفق إلى عمل وذهب اليه ولكنه لم يحتمل البقاء فيه أكثر من أربعة أيام ورجع إلى أمه هربا من قسوة الرؤساء ومن ألم الفراق ! وعاود الكرة ثلاث مرات ولكنه لم يفلح فى شق طريق حياته وضمان مستقبله وهو الآن بجانب أمه يعض أصبعه ندما على ما فاته ولكن بعد فوات الأوان .

ومن المشاكل التى تقابل الطفل فى المنازل مشكلة المثل العليا التى يراد صبه فى قالبها. فمن الطبيعى أن كل والد يرغب أن يرى أولاده ناجحين فى الحياة . ولذلك فهو يتصور مستقبل أطفاله حسب ميوله ورغباته . ويخط لهم خطط حياتهم حسب ما يشتهى ويتمنى . والوالد إن صادف نجاحا فى حياته أوحياة ولده الأكبر فإنه يريد طفله الناشئ أن يضرب الرقم القياسى فى النجاح . فيشدد عليه ، ويستنكر تراخيه ، وهو لا يدرى . فربما كان ذلك فوق طاقته العقلية والجسمية، وربما أدى به الضغط إلى الضرر أو ربما كان توجيه الطفل ضد رغباته وميوله الطبيعية.

جاء إلىّ فى العيادة السيكولوجية طفل متأخر جدّا فى دروسه ولا يدرى أبوه سبب تأخره مع تفوق أخيه الأكبر تفوقا عظيما على جميع أقرانه . وبعد فحص الطفل فحصا طبيا ونفسيا لم يتبين به خطأ يتسبب عنه ذلك التأخر ، اللهم إلا أن استعداده الطبعى لم يوجه توجيها صالحا ، وهو وإن لم يظهر نجاحا فى دروسه النظرية إلا أن له مواهب طبيعية فى نواح أخرى كان يمكن توجيهه إليها. ويجب على الوالد أن يعلم أن استعدادات الأطفال العقلية وطبائعهم وميولهم تختلف فى العائلة الواحدة اختلافا متباينا، ويجب أن يقدّر ظروف كل طفل عند اعداده للمستقبل ... ... أعرف أولادا كثيرين خابوا لأن أولياء أمورهم لم يفهموهم الفهم الصحيح ولم يوجهوهم الوجهة النافعة .

حضر إلىّ والد مع ولده الذى يبلغ من العمر ١٦ سنة والذى دأب على الخمول والهروب من المنزل والمدرسة، وبعد فحصه لم يظهر به ما يريب فى عقليته ونفسيته . وبسؤال الوالد ظهر أن له ميلا دينيا خاصا اشتد به أخيرا إلى درجة كادت تفقده صوابه فأصبح كل تفكيره ينحصر فى هذه الناحية ، فمال إلى كل شىء يوجهه نحو هذا السبيل فلم يبق أمامه إلا ابنه الوحيد فأخرجه من المدرسة الإيطالية بعد أن قضى فيها بضع سنين وتشرب روح الفن والذوق

وأصبح مولعا بالرسم والتصوير إلى درجة كبيرة ، وكان لا يقضى أوقات فراغه إلا مشتغلا بهذه الفنون الجميلة ... ... ثم بعد ذلك يأتى الوالد وقد هبط عليه الوحى فى يوم وليلة ، يريد أن يعترض سبيل هذا الشعور والميل الطبعى ويفرض على هذا الولد المسكين مالا طاقة له به. فيذهب به إلى المدرسة الدينية التى يريدها ويشدد فى إملاء رغباته عليه ويضغط على شعوره ليحوله إلى هـذا الطريق بالرغم منه . فماذا كانت النتيجة ... ... النتيجة طبعا هروب الولد من المنزل والمدرسـة واختلال توازنه العقلى والنفسى ... ... ثم بعد ذلك كله يأتى الوالد مستغربا ما حل بابنه ... ... ولو كان الرجل عاقلا لأمكنه بارشاد بسيط تحقيق رغبته فى طفله ورغبة الطفل فى نفسه . فالتمسك بالدين لا يتعارض مطلقا مع التمشى مع ميـول الشخص النفسية ومواهبه الطبيعية ، بل ربمـا أدى به الدين إلى الاخلاص فى عمله واتقانه والعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا .

وكم من آباء يجبرون أولادهم على الالتحاق بأقسام ليس لديهم الاستعداد الكافى لهـا فأمل الأب الوحيد أن يرى ابنه طبيبا بأى ثمن ، فيرغمه على دخول القسم العلمى رغم ميله الطبعى للمواد الأدبية. فيدخل الولد ويجاهد ويكافح ويقضى سنى الدراسة مضاعفة، ثم لا يتمكن أخيرا من الحصول على المجموع الكافى لدخوله الطب فيدخل الهندسة بعد أن خاب فى أولى أمانيه. وسرعان مايجد نفسه فى عالم غير عالم العلم الذى يهواه فيصارع الأرقام وهى تصارعه ، وأخيرا تصرعه فيخرج لا يلوى على شىء وقد خاب أمل الجميع فيه وخصوصا أمل الوالد المسكين .

وقد أثبتت الحالات الكثيرة التى تشاهد فى الأطفال كل يوم ، والتى تأتى إلينا كثيرا فى العيادات السيكولوجية أن الخطر كل الخطر على مستقبل الطفل أن نسيّر حياته وفق أهوائنا بغير نظر إلى ميله الطبيعى وشعوره الخاص. فالطفل الذى ينشأ بطبعه ميالا إلى الأعمال اليدوية والميكانيكية من الظلم أن نرغمه مثلا على دخول المدارس الثانوية أو الأشتغال بالأعمال العقلية. فما فى ذلك إلا إرهاق له ومضيعة لوقته وكبت لمواهبه الطبيعية وخسارة على أهله وعلى المجتمع. أما الأب الذى لم يشبع رغبات شبابه فى التعليم ويريد أن يسد ابنه له ذلك الفراغ فى نفسه فهو أب جاهل ويجب ارشاده إلى مافيه خير الطفل بصرف النظر عن تخيلاته وتمنياته .

لقد جرنا الحديث الى ذكر بعض الحالات التى تصادفنا فى مشاهداتنا العلميـة . وكل غرضنا أن ننير الطريق أمام الآباء والأمهات إلى أحسن الوسائل لتربية الأطفال تربية علمية صحيحة حتى لا يصادفهم فى أطفالهم مايصادفنا فى مشكلات الأطفال، وحتى نتعاون جميعا على إعداد جيل صحيح قادر على إنهاض هذا الوطن العزيز .

زاهية مرزوق